الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

الكلية :الآداب واللغات

القسم: اللغة والآداب العربي

عنوان الليسانس: الأدب العربي **الشعبة: دراسات أدبية**

التخصص: أدب عربي

السنة الثالثة

السداسي :الخامس

المادة : جماليات السرد العربي القديم

محاضرات في مقياس:

جماليات السرد العربي القديم

الأستاذة: دربالي وهيبة

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

السنة الجامعية-2021-2022

عنوان المحاضرة: شعرية السرد الصوفي

أولًا–مفهوم التصوف وأبرز أنواعه :

يعد التصوف موضوع مشترك بين الثقافات الإنسانية،وظهر التصوف العربي استنادًا للتعاليم الإسلامية،وبتأثير من الثقافات الأجنبية،وتضمن الخطاب الصوفي سردًا لقصص وأخبار بطريقة مختلفة عن السرد في الفنون الأدبية الأخرى.

1–مفهوم مصطلح التصوف:

نقصد بالتصوف هنا التصوف الإسلامي،المتأثر بالتعاليم الإسلامية،التي أقرها القرآن الكريم، ودعت إليها السنة النبوية،وفي هذا الصدد نبدأ بتعريف التصوف في اللغة ثم الاصطلاح.

أ– مفهوم مصطلح التصوف في اللغة:

جاء في لسان العرب معنى التصوف«من استصفى الشيءَ،واصطفاه اختارهُ،وصفوة الله من خلقه ومصطفاه والأنبياء المصطفون،وهم من المصطفين إذا اختيروا، وصفيَّ الإنسان أخوهُ الذي يصافيه الإخاء، والصفي المصافي،وأصفيته الودَّ :أخلصته».

فالتصوف أصله في اللغة من الإخلاص في المعاملة،والاختيار من صفوة الناس،ومنه جاء اختيار الله ﷻ للأنبياء فهم المصطفون،ومن معاني التصوف«صاف يصوفُ صوفًا الكبش: كثُرَ صوفهُ، وتصوَّفَ صار صوفيًا تخلق بأخلاق الصوفية والصوفية فئة من المتعبدين، واحدهم الصوفي، وهو عندهم من كان فانيًا بنفسه باقيًا بالله تعالى».

إن التصوف في الأصل اللغوي"مشتق من كلمة "صوف"،والصوف للغنم هو كثرة الصوف فيها، وتَصوَّفَ: انعزل وابتعد عن مخالطة الناس وملذات الدنيا،وأخلص عبادته لله ﷻ،وتخلق بالأخلاق الحسنة.

نلاحظ كثرة التعاريف اللغوية المقدمة للتصوف،وهي مختلفة وبعيدة عن مفهوم التصوف،فالصوف في الكبش لاعلاقة له بمدلول التصوف الذي نتناوله،والمفهوم القريب للتصوف هو الابتعاد عن حياة اللهو والمجنون والانعزال عن الناس والعكوف على العبادة،وحصل اختلاف كبير حول مفهوم مصطلح التصوف لكثرة اشتقاقاته وتعدد معانيها«وحول اشتقاق لفظ الصوفي ومعناه كثُر الخلاف حول اشتقاق كلمة "الصوفي"فجمهور الصوفية يذهبون إلى القول بأنه مشتق من"الصفاء"، ويذهب بعضهم إلى اشتقاقها من الصف"واحد الصفوف...وهناك اشتقاق نسبتها الصوفي إلى الصوف».

نلاحظ أن تلك الاشتقاقات لمصطلح التصوف لاعلاقة لها بمدلول التصوف الذي نبحث عنه،ورجع اختلاف المدلول اللغوي للتصوف لحداثة نشأت مصطلح التصوف في الساحة الأدبية العربية.

ب– مفهوم مصطلح التصوفMysticisme في الاصطلاح الأدبي:

إن المفهوم الأدبي لمصطلح التصوف هو«فكر أوتأمل في أمور غامضة،ويأخذ التصوف أشكالًا متعددة في حياة الأدباء الذهنية والروحية والانفعالية،ويرى الكثيرمن نقاد الأدب أن نزعة المثالية المتعالية في الأدب هي شكل من أشكال التصوف».

ارتبط التصوف بالحياة الشعورية والاجتماعية للأديب،وظهر أثر التصوف في السرد العربي القديم، وتبلور كغرض من أغراض الأدب العربي القديم في الشعر والنثر،والجدير بالذكر هو أن «التصوف Mysticisme مفهوم غير قابل للفصل عن موروثه الديني والثقافي والاجتماعي، الذي وُلد فيه ويمثل التصوف تيارًا خاصًا في التاريخ الديني، يميز بتأكيده تجربة معاشة وحدسية لماهو إلهي، وأبدي ولانهائي ،وقد تجسد بتيارات متنوعة إشراقية».

نلاحظ أن التصوف مرتبط بالتراث الديني والثقافي والاجتماعي للأديب، وإن كان التصوف شديد الاتصال بالجانب الديني ويتشرب الكثير من المفاهيم والتصورات من الحقل الديني .

ج- مفهوم مصطلح التصوف في الاصطلاح الديني :

إن معنى مصطلح التصوف في المفهوم العقائدي « هو امتثال الأمر واجتناب النهي في الظاهر والباطن من حيث يرضى لا من حيث ترضى».

اتضح لنا أن التصوف هو إيثار وتضحية باللذائذ والشهوات بمجاهدة النفس ومغالبة أهوائها،والتصوف هو طريقة في السلوك،والتحلي بالأخلاق والمثل العليا «والتصوف يمكن أن يُعرف بأنه "حب مطلق" فبذلك الحب يتميز التصوف الحقيقي عن طقوس الزهد الأخرى، وحب الإله يجعل المريد يتحمل كل الآلام والمصائب».

ومنه فالتصوف هو شعور محبة نحو الذات الإلهية وامتثال لأوامرها،وهناك علاقة بين التصوف والزهد، وفي الغالب يخلط الناس بين المصطلحين مع وجود فرق بين مفهومي الزهد والتصوف .

2- أنواع التصوف الأدبي :

تطور التصوف العربي- نتيجة التأثر بالثقافات الأجنبية-إلى أنواع،وظهر في التاريخ الإسلامي أنواع للتصوف من أبرزها «أن الأدب الصوفي كان نتاجًا لجنسين مختلفين:الجنس السامي، ويمثله الأدب الصوفي العربي،والجنس الآري،ويمثله الأدب الصوفي الفارسي، وبين الجنسين اختلاف كبير في التصوف والنتاج والمزاج».

إن التصوف هو نتاج ثقافة ودين، واختلاف الثقافتين العربية والفارسية تبعه اختلاف في التصوفين العربي والفارسي على الرُغم من توحدهما في الدين الإسلامي، وتأثر التصوف العربي بالإسلام ، فاصطبغ بصبغة دينية، وظهرت تجلياته في فنون أدبية عديدة ، ويرى النقاد بأن التصوف الإسلامي انقسم إلى قسمين :

أ- التصوف السني:ظهر عند الغزالي

ب-التصوف الفلسفي: يختلف عن التصوف السني، في مزج أصحابه أذواقهم الصوفية بأنظارهم العقلية

ظهر التصوف الفلسفي مع تطور الفكر العربي الإسلامي وامتزاجه مع الثقافات الأجنبية كاليونانية والفارسية، والملاحظ هو سيادة التصوف السني في الثقافة العربية الإسلامية».

رجعت أسباب هيمنة التصوف السني على الثقافة العربية لكونه وسطي معتدل، وفي المقابل نجد التصوف الفلسفي حمل في طياته توجهات فكرية وفلسفية مختلفة، ونشأ التصوف الفلسفي نتيجة المثاقفة مع الفلسفات اليونانية والفارسية، ويقوم على إعمال الفكر في أمور الدين، ومنه نستطيع القول بأن «التصوف نوعان أحدها ديني، والآخر فلسفي: فالتصوف الديني ظاهرة مشتركة بين الأديان جميعًا، والتصوف الفلسفي قديم كذلك».

يعد التصوف ظاهرة مشتركة بين الشعوب،والتصوف الديني مرتبط بتعاليم الديانات السماوية،وأما التصوف الفلسفي ارتبط بتوجهات فكرية وفلسفات وضعية.

ثانيًا - السرد في الأدب الصوفي :

نلاحظ أن الصوفية في بعض كتاباتهم الأدبية مالوا نحوالسرد القصصي أوالإخباري،وفيمايلي سنأخذ نماذج من السرد الصوفي

1-أشكال التعبير الرمزي الصوفي :

لقد تنوعت طرق التعبير الرمزي الصوفي في تاريخ التصوف الإسلامي إلى ثلاثة أشكال رئيسية :

أ-الكتابة النثرية: بلغة موغلة في الاستغلال والتعمية على نحو مانجد في مؤلفات عبد الكريم الجيلي.

ب-الأقاصيص الرمزية:مثل قصة حي بن يقظان كتبها ابن سينا ثم ابن طفيل ورسالتي"أصوات أجنحة جبرائيل"و"الغربة الغربية" للسهروردي .

ج–الشعر الصوفي : استطاع الشعراء من الصوفية أن يصوروا أدق المعاني الصوفية من خلال قصائدهم المطولة».

نشأت تلك الأشكال التعبيرية في الأدب العربي القديم، وظهرت في الشعر الصوفي، الذي نظمه الصوفية على نطاق ضيق، والملاحظ هو أن النثر كان الأنسب للتعبير عند الصوفية، فالنثر مساحته التعبيرية واسعة، وهو موجه لعامة الناس.

2– معالم سرد الخطاب الصوفي عند الصوفية :

يعد التصوف ظاهرة دينية وأدبية ، وطائفة الصوفية هي «إحدى الفرق الكلامية Sufismus التي ظهرت عام 199هـ(814م) وكلمة صوفي كانت أول أمرها مقصورة على الكوفة».

نشأ التصوف في بداية الأمر في العراق نتيجة ازدهار الحركة الأدبية والعلمية، والتصوف هو تمام الأدب نشأ في القرن الثاني للهجرة،وتأثر العرب بالفرس والروم،ومن أعلام التصوف نذكر محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفري وابن عربي وعبد الكريم الجيلي،وقد ألف عبد الجبار النفري كتبًا ضمنها فلسفته في التصوف،ومنها كتاب المواقف والمخاطبات،وفي هذاالكتاب نجد النفري سرد قصصًا «وشكل عبد الجبار النفري شخصية الراوي والبطل معًا، وأما الأحداث في القصة،فهي تحكم الخوف واستسلام الرجاء،وتحوّل الغنى نارًا واللحاق بها،واحتجاج الفقر..الخ، والنص مشحون بالمشاعر العاطفية».

تقمص النفري دور الراوي،وجسد دور البطل كذلك ،وهو مالانجده في تقاليد الحكايات العربية ،وأما أحداث قصصه فكانت رمزية ، ولقد غلب الطابع الوجداني على قصص النفري .

أ– توظيف الصور البلاغية:

من الصعب فهم العمل الصوفي لكون مضامينه روحية يتم التعبير عنها بلغة رمزية،واعتماد أسلوب التلويح جعل من الخطاب الصوفي موجهًا فقط لفئة خاصة من المتلقين«وأما أسلوب الحلاج في النثر الأدبي، الذي يستطيع الباحث أن يبين ملامح النثر الأدبي عند هذا الصوفي الكبير من احتفال بالسجع، والتضمين بكلام الله ﷻ،وهو لون بلاغي يكسو الكلام ثوبًا قشيبًا ويقويه لدى السامع،ويتولى على الألباب،ويستحر الأفئدة لما فيه من جمال وماله روعة، فالعمل الصوفي في النهاية هو عمل فني،مفعم بالرموز والإيحاءات والتلويحات،التي لاتتكشف إلا بضرب من التذوق،فلقد تكلم الصوفية عن معان شاهدوها حين انفتحت عيون قلوبهم،وانطبقت عيون رؤوسهم(عبارة النفري) ومن هنا كان علينا أن ننظر إلى كلماتهم بعين القلب».

اعتمد الحلاج على المحسنات البديعية ،وكان التعبير الإشاري أحد أهم طرقه،وهو يتحدث عن تجاربه الروحية، والخطاب الصوفي موجه لمتلقي خاص يتذوق جماليات ذالك العمل ،يحاول فك مغاليق رموزه، ونشير إلى أن التوحيدي« يجاري في هذا الاختيار اللفظي مجرى الصوفية عمومًا، الذين بنو لغتهم على الإشارة والرمز ،وجعلوها جد خاصة بمذهبهم الغامض».

سار التوحيدي على مذهب الصوفية في الأخذ بالتعبير الرمزي في السرد الصوفي، وتوضحت طريقة الصوفية في السرد عند أبرز أقطابها،وكان سمة الرمزية القاسم المشترك بينهم ،والجدير بالذكر هو أن الصوفي يتحدث في نصوصه عن تأملات في الذات الإلهية« وإن المجرد في النص هو عالم حقيقي يُبشر به النفري،والمعرفة التي يُحصلها الواقف (العارف الواصل) هي معرفة حقيقية لامجازية ، فالتجربة التي يعيشها النفري يرفضُ تسميتها مجازًا أو تشبيهًا، والميل الصوفي نحو تجسيد المجرد يعكس نظرة خاصة نحو(الجسد) ففي الرؤية النفرية مثلًا يخاطب الله النفري في أحد المواقف:"إن لم ترني من وراء الضدين رؤية واحدة لم تعرفني، فهناك طرفان ضدان (الله والإنسان) ».

برع النفري في التعبير عن رؤاه وتأملاته الروحية،فوصل به الأمر إلى تخيل أن الله يخاطبه ،وهو قريب منه،والعلاقة بين الإنسان والله ﷻ هي علاقة ضدية«والصورة التشبيهية في النثر الصوفي هي صورة موجزة وسريعة وموحية؛لأنها انعكاس للفكرة في كلمات كانعكاس الصورة في مرآة ،وهدفها هو وصف حالاتٍ وجدانية مشحونة بالعاطفة.

إن استعارات النفري هي صورة ذهنية تعكسُ ميلًا نفريًا نحو تجسيد المجرّد ، وتشخيصه وبث الحياة فيه، وموقف الموت هو أحد المواقف النفرية المبنية على الاستعارة».

ومما جاء به النفري في موقف الموت قوله:« أوقفني في الموت فرأيت الأعمال كلها سيئات، ورأيت الخوف يتحكم على الرجاء،ورأيت الغنى قد صار نارًا ،ولحق بالنار، ورأيت الفقر خصمًا يحتج، ورأيت كل شيء لايقدر على شيء».

دلت وقفة الموت على تدبر فكري عميق للنفري في حقيقة الموت،وللنفري كتاب خاص بالمواقف،وبلغ التعبير الرمزي أوجه في مرحلة الوقفة،وفيها صوَّر الشاعر تجاربه الشعورية،وعبر عن الحالات الشعورية التي تنتابه،ومنه نلاحظ أن كتاب المواقف والمخاطبات حفل بالصور البلاغية، ومنها الاستعارة، واعتمد النفري على الاستعارات الموحية،وهي على الرغم من إيجازها ، إلا أنها استطاعت وصف الحالات الشعورية .

ب- تقنيات السرد الصوفي عند عبد الجبار النفري :

ظهرت مظاهر السرد عند النفري في كتابيه المواقف والمخاطبات متمثلة في :

أ- أسلوب الوقفة : يبدأ بعبارة "أوقفني"

ب- أسلوب المخاطبة:قد يوحي أسلوب المخاطبة بأن الله يخصُّ النفري من عباده،لكن الحقيقة هي أن المخاطبة تتوجه لعموم العباد،أما التخصيص الذي يوحي به النفري،فهو تخصيص محبة،فبين النفري والله حب متبادل لايلبث أن يكبر ويعم،وتتبادله الكائنات والموجودات».

عبَّر النفري عن حبه لله ﷻ من خلال الوجود وتأملاته فيه ، ونلاحظ أن أسلوب الوقفة بدأ دائمًا بعبارة "أوقفني"، ومفهوم الوقفة عند ابن عربي معناه «توقف السالك بين مقامين، وذلك لخروجه من حكمهما نفقد استوفى حقوق المقام الذي ترقى عنه ولم يدخل في آداب المقام الذي يليه».

تعد الوقفة أسلوب تعبير خاص قصد منه النفري الوقوف بين مقامين،وللنفري تأملات عديدة ظهرت ضمن وقفاته،فعلى سبيل المثال قال النفري في إحدى موافقه:«أوقفني في التقرير،وقال لي تريدني أو تريد الوقفة،أو تريد هيئة الوقفة،فإن أردتني كنت في الوقفة لافي إرادة الوقفة،وإن أردت الوقفة كنت في إرادتك لافي الوقفة،وإن أردت هيئة الوقفة عبدت نفسك وفاتتك الوقفة».

نفهم من سياق الكلام أن حب الصوفي الخالص هو لله ﷻ وحده ، مايُمَّكن الصوفي من التقرب منه،والوقفة هي مجرد طريق إلى ذلك فهي وسيلة لاغاية في حد ذاتها .

وأما أسلوب المخاطبة فيبدأ بعبارة "ياعبد" وفي المخاطبة ورد قوله:«ياعبد أنا الحاكم الذي لايحكم عليه، وأنا العالم الذي لايطلع عليه.

ياعبد لولا صمودي ماصمدت ،ولولا دوامي مامت

ياعبد اخرج من همك تخرج من حدّك » .

اتضح في أسلوب المخاطبة أن الله ﷻ خاطب النفري بقوته وجلاله،ودوامه وصموده،وهي صفات حصرية له،وفي الحقيقة أن اللهﷻ خاطب جميع عباده،وهنا من شدة حب النفري لله ﷻتخيّل أنه يخصه بالحديث دون غيره من العباد«وإن الفكرة الأساسية التي بدأ بها النفري المخاطبة،وهي بشارة تغيير الواقع،هي الفكرة التي أنهاه بها،وهي أفول ليل الظلم والحرمان والجوع ».

حمل خطاب النفري رؤية تفاؤلية بالمستقبل تمثلت في زوال الظلم والفقر وغير ذلك من المعانا للمؤمن، وقد يحصل تداخل بين الأسلوبين الوقفة مع المخاطبة، وذلك في قول النفري:«ياعبد إن وقفت في النور غشيت فلا إليَّ تنظر،ولا إلى النور تنظر فترجع مراجعك إليك فترى بك شهواتك وتمشي بك في خطواتك».

ومما سبق نلاحظ أن الخطاب الصوفي في الوقفة والمخاطبة هو خطاب فلسفي صوفي دعا إلى التأمل العميق في دلالات المعاني،وما تبطنه من ألغاز، وهنا ظهر جديد التعبير في لون السرد الصوفي،فالنفري جعل من الحالات الإنسانية من خوف ورجاء وغنى فقر كشخصيات قامت بأدوار في إطار قصة مكتملة فيها بداية وعقدة وحل .

ج- دلالة الحرف عند عبد الجبار النفري:

استخدم النفري كلمة الحرف ،وهو في بعض الأحيان يستخدم كلمة المحروف بمعنى المدلول،أو الشيء الذي يصفه الحرف أو يتوجه إليه» .

تقارب مفهوم النفري مع النقد العربي الحديث واللسانيات الحديثة،في اعتبار الحرف تعبيرًا عن الدال والمحروف تعبيرًا عن المدلول،وجاء في قول النفري « ياعبد الحرف ناري الحرف قدري الحرف حتمي من أمري الحرف خزانة سري .

ياعبد لاتدخل إلى الحرف إلا ونظري في قلبك، ونوري على وجهك، واسمي الذي ينفسخ له قلبك على لسانك ».

جعل النفري الحرف مصدر المعرفة،ويتطلب قوة الإيمان من المتصوف من أجل التعبير بالحرف،وتحدث عن حقيقة الحرف في أسلوب المخاطبة .

د-ظاهرة الغموض في سرد عبد الجبار النفري :

ظهر الغموض في السرد الصوفي،وهو راجع لاستخدام الرمز ، وتجلى الغموض في الخطاب الصوفي عند النفري في مظاهر عديدة، ومنها مايلي :

أ- تعدد التسميات لمُسمى واحد :مثل المرأة من أسمائها: الأرض والشمس

ب- صمت النفري ؛ فهو لايتكلم بل يتحدث بلسان الله الذي له حرية الكلام

ج- أزمة اللغة العادية ،إذ يرى النفري أنها تستطيع التعبير عن التجربة الصوفية

د- الالتفات والانتقال الدائم والسريع للضمائر بين الخطاب والغيبة

و- الجدل مظهر آخر من مظاهر الغموض على صعيدي الشكل والمضمون. ».

ومن مظاهر تجليات الغموض استعمال الرمز ،وإضفاء دلالات جديدة على مفردات اللغة،وتعدد دلالات بعض الكلمات وحصل الانتقال السريع للضمائر عند النفري بين الخطاب والغيبة راجع لإيجاز فقراته وقصر جمله«ويبدو أن التجربة الصوفية واحدة في جوهرها،ولكن الاختلاف بين صوفي وآخر راجع أساسًا إلى تفسير التجربة ذاتها المتأثر بالحضارة،التي ينتمي إليها كل واحد منهما ».

إن الملاحظ هو أن أعلام الصوفية العرب عاشوا في نفس البيئة الدينية والاجتماعية،ولذلك نجد لهم نفس أسلوب في التعبير الصوفي، وظهر جديد الصوفية في التعبير ،فعمدوا إلى التلويح بالرمز والإشارة «ومماهو جد شائع أن الكتاب الصوفيون مولعون باقتباس الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وأما النفري فشديد الابتعاد عن هذا التقليد،مع أن في ميسورك التوكيد على أن المناخ الإسلامي يشكل خلفية واضحة للنصوص النفرية أو لمعظمها».

انتهج النفري أسلوبًا جديدًا في التعبير ابتعد فيه عن الاقتباس المباشر من القرآن الكريم أو الحديث النبوي، ومع أنه اعتمد على نصوص القرآن الكريم كمرجعية أساسية لخطابه الصوفي .

و-جديد اللغة الصوفية عند عبد الجبار النفري :

وظف النفري لغة جديدة في السرد الصوفي «ويعد النفري شديد القدرة على التعبير حتى لكأنه قد سحر الألفاظ ، فصارت تأتيه طوعًا لاكرهًا، وأما عند الطرف الثاني من المعادلة، فإن النفري لايثق باللغة ،ولايقيم لها وزنًا كبيرًا في مضمار البلوغ

إلى الحق الصرف ،ويقول النفري:" كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة" ويعني ذلك كلما ازدادت الرؤيا سعة ازدادت اللغة ضيقًا بالفعل؛لأنها أعجز من أن تحمل ثقل المعاني المقامة من وراء الغيب،وأما القول الثاني،وخلاصته أن اللغة حجاب يحجب الحقيقة،فلا يسعك استيعابه،إلا إذا استوعب مذهب النفري ، وخلاصة هذا المذهب هو أن ترى لا أن تعرف».

يرى النفري أن اللغة صارت عاجزة عن التعبيرعن الفيض الروحي الذي ينتابه أثناء التأمل الوجداني،فكلما اتسعت رؤية المتصوف ضاقت مساحة التعبير اللغوي عنده،وتلقي الخطاب الصوفي يتطلب الإيمان بحواسه لابعقله، وعلى حد تعبير النفري«وقال لي: العبارة ميل:أما أن العبارة ميل،فهي كذلك إنك متى عبَّرت صُغت الجوهر في ألفاظ لاتكفي عادة للإحاطة بالكل الذي يريد أن يظهر».

ودائمًا نجد النفري يقر بحقيقة مفادهاعجز اللغة عن التعبير عن رؤيا المتصوف،وذلك أن المضامين التي يحملها المتصوف أكثر من تستوعبها اللغة العادية .

هـ – جمالية الاستهلال الحواري عند عبد الجبار النفري:

اعتمد النفري الحوار في أسلوب الوقفة،وتمثل«الاستهلال الحواري في"أوقفني وقال لي/قال لي" يعكس سيطرة فكرة معينة على ذهنية الواقف،فكان الحوار محاولة للقضاء على هذه الأفكار،التي أخذت تصارع الواقف، فكان أن ارتضى لها الخروج على شكل حوار "وهذا الخروج كان ضروريًا ».

كانت عبارات من قبيل"أوقفني/ وقال لي"بمثابة كلمات مفتاحية للسرد الصوفي في الوقفة«فأوقفني وقال لي:"هي محاولة للتكييف المستمرمع معرفته المتحصلة في كل موقف،وبما يتناسب معها ويجري تخصيب هذه المحاولة بعملية الحوار المستمر في المواقف،وهي محاولات لتغيير الموقف الثابت،وحين يحاور المرء نفسه،فإنه يحاول أن يسموعلى حالة الثبات التي يتوصل إليها،إذ يصير إلى حركة موزاية لحركة الواقع المتدفق بما يضمن عدم بقائها متجمدة عند موقف معين حتى لاتستحيل إلى شيء"غير ذي حياة"لتكن "أوقفني وقال لي"هي هوية الانتماء إلى حياة تبحث عن الحقيقة، لالتعرفها بل لتحدد بها».

اعتمد النفري على تقنية سردية تقوم على الحوار"أوقفني وقال لي/قال لي"،والمعرفة التي يُعبر عنها النفري في نصوصه هي معرفة كشفية«ونستجلي الآليات من خلال نصوص سردية، قام فيها بقراءة بعض الآيات القرآنية قراءة تتسم التبديد للبنية اللغوية الأصلية للنص القرآني، والملاحظ أن النفري يركّز في توظيفه للقرآن الكريم على كلمات من آيات، وليس آيات كاملة كماأنه يركزعلى الآيات التي ورد فيها الحوار بين الله والأنبياء أوالأولياء،ويرغب في استعادة شروط الخطاب القرآني الشفهي».

ركز النفري على الآيات القرآنية التي تضمنت الحوار بين اللهﷻوأنبياءه في رغبة منه لإعادة صياغة الخطاب الشفوي « وخرج النفري على القارئ بتجربة صوفية تتجاوز الحديث المتداول لدى الصوفية قبله عن المقامات والأحوال إلى نقل تجربة الاتصال المباشربالحق،ويحدث الاتصال بالحق في مرقى الوقفة التي يحدث فيها فناء الذات الطالبة في الموضوع المطلوب»

تمثل جديد النفري في تجربته الصوفية في كشفه عن حقيقة تواصله مع الله ﷻ في وقفاته،ومحاولة حلوله في الذات الإلهية،ومأأسلوب الوقفة إلا طريقة جديدة في التعبير عن رؤيته الكشفية.

3–الخصائص العامة للسرد الصوفي :

امتاز الأدب الصوفي بخصائص فنية ميزته عن الأنواع الأدبية الأخرى ،ومنها :

أ– خصائص النثر الصوفي:

اتصف النثر الصوفي بخصائص نوجزها في النقاط التالية :

- النثر الصوفي صادر عن عاطفة قوية ،ومشاعر حية

- إيمان الصوفي المطلق بالله وبالإنسان الذي استعز بعزة الله
- بلاغة النثر الصوفي وروعته وجلالة سحره ،وشدة تأثيره على النفوس
- وضوح أساليب النثر الصوفي وجمال ألفاظه وسهولة تراكيبه إلا عند المتأخرين أو من تفلسف من الصوفية كابن عربي وابن الفارض،فقد صار الأدب عندهم أدبًا رمزيًا،وألفاظًا اصطلاحية في الأكثر،وغرابة في كثير الأحايين بل تعقيدًا
- امتاز النثر الصوفي بروائع مااشتمل عليه من التمثيل والتشبيه والخيال والتصوير .
- والصوفية قبل كل شيء في جانب المعنى لا اللفظ ،فأدبهم مليء بالمعاني الثرية
- ومن آثار الأدب الصوفي في نصوص كثيرة من القصص والوصف والحكم وجوامع الكلم».

مما تقدم اتضح لنا أن خصائص النثر الصوفي هي جمالية التعبير عن المضامين،ونلاحظ أن الصوفية ركزوا على المضامين ، وأما اهتمامهم ببلاغة الأسلوب فهو كوسيلة لتوصيل المضامين الصوفية .

مماهو معلوم هو أن التصوف نتاج مثاقفة وتفكير في أمور دينية،وامتاز الأدب الصوفي بخصائص على مستوى الشكل والمضمون،فعلى مستوى المضامين نذكر سمو المعاني لتعلقها بالذات الإلهية،ومع تنوع أغراضهم من الحنين والزهد..الخ إلا أنها كلها ارتبطت بمجال واحد وهو تزكية النفس وإصلاحها،وأما من حيث الشكل فوظف الصوفية الرمز والخيال،وكانت لهم لغة خاصة لايفهما إلا المشتغل بمجالهم .

ومنه فقد توفر للأدب الصوفي خصائص ميزته عن فنون الأدب العربي، فهو أدب كُتب لغاية رمزية سامية هدف الأديب الصوفي من وراءها هو التعبير عن الفيض الروحي التي يشعر بها، وحالات الوُجد والهيام في الذات الإلهية .

ب- خصائص السرد الصوفي :

مماهو معلوم هو أن التصوف نتاج مثاقفة وتفكير في أمور دينية، وامتاز الأدب الصوفي بخصائص فنية ميزته عن الأنواع الأدبية الأخرى ،ومنها نذكر:

*** الرمزية في السرد الصوفي:**

مماهو معلوم أن الرمزية العربية اعتمدت على الركنين: الإيجاز وغير المباشرة في التعبير، وكانت الرمزية الإسلامية رمزية في الأسلوب ،وتجلت الرمزية العربية في أحاديث رسول الله (ﷺ) فكانت ذات بلاغة رائعة عالية ، وكان يوجز غالبًا وتأثر أدباء الصوفية بأسلوب الرسول (ﷺ) وللصوفية من الرمزية والأدب الرمزي ماليس لغيرهم، رمزية في المذهب،وفي الأسلوب،وفي المعاني ،وفي الأخيلة مما لاتتصل إليها روائع الاستعارة والكناية والتمثيل».

تجسد الرمز عند الصوفية على عدة مستويات في الأسلوب والمعاني والخيال ،فشكل الرمز أساس خطاب الصوفية نذلك أن المضامين الصوفية لايمكن التعبير عنها مباشرة بل باستعمال الرمز« وطغت على الأدب الصوفي صفة الرمزية وتميّزت معظم نصوصهم بالإفراط في استعمال الرموز والأخيلة، وقد اتخذ الصوفية لغة خاصة بهم ومسميات لايعرفها إلا هم،ولكنهم فعلوا في اللغة كما كل العلماء في اللغة العربية،فأخذوا الألفاظ العربية وأطلقوها على مدلولات خاصة».

أكسب الصوفية مفردات اللغة معاني جديدة ،وتوفر لديهم معجم خاص من الدلالات الصوفية،التي لايفمها غير المشتغل بمجال التصوف.

***غموض دلالة المضامين الصوفية :**

تميَّز الأدب الصوفي بخصائص تميزه عن الآداب الأخرى،ومنها «السمو الروحي والمعاني النفسية العميقة والخضوع التام لإرادة الله القوية، وبعد الخيال والشطحات كما يتصف بالغموض والمعاني الرمزية،وكان للصوفية أدب غزير ينطق بما تنطوي

عليه سرائرهم، وتخفيه ضمائرهم ويشف عن حكمة بالغة،وفهم واسع وعقل راجح،وخيال خصب ، فلقد جاء أدبهم نتاج قرائح صافية ، وقلوب واعية، واشراقات إلهية ميزته عن سائر المدارس الأدبية،وذلك لعنايته الفائقة بالرمز والغموض والإشارة،وقد كانت له ألفاظه الخاصة به وأساليب الأدبية،وأساليبه القاصرة عليه،وتناوله للمعاني والأفكار،فلقد تناولوا أغراض الحب الإلهي،والحنين والوجد والبقاء والغناء ووصف الخمر والغزل الإلهي والزهد بصورة لايفهمها إلا من سلك طريقهم ».

كانت للصوفية أغراض مماثلة للأغراض الأدبية من الوصف والزهد ،ولكن حصل توظيف الغزل والخمر والحب لخدمة توجههم الصوفي ،وهو مالانجده في مجالات التعبير الأدبي الأخرى .

***اللغة الصوفية الجديدة :**

مماهو معلوم هو أن للصوفية لغة خاصة لايفهمها إلا المشتغل بمجالهم«وكان لكل طائفة من العلماء ألفاظ يستعملونها وانفردوا بها عمن سواهم،وتوطئوا عليها لأغراض لهم فيها من تقريب الفهم على المخاطبين بها،أوتسهيلية على أهل تلك الصنعة في الموقوف على معانيهم بإطلاقها،وهذه الطائفة الصوفية يستعملون ألفاظًا فيما بينهم قصدوا بها عن معانيهم لأنفسهم والإخفاء والستر على من باينهم في طريقتهم لتكون معاني ألفاظهم،مستبهمة على الأجانب غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها».

امتاز الأدب الصوفي بخصائص على مستوى الشكل والمضمون ،فعلى مستوى المضامين نذكر سمو المضامين لتعلقها بالذات الإلهية وتمجيدها،ومع تنوع أغراضهم من الحنين والزهد..الخ إلا أنها كلها ارتبطت بمجال واحد، وهو تزكية النفس وإصلاحها،وأما من حيث الشكل فوظف الصوفية الرمز والخيال،ومنه فقد توفر للأدب الصوفي خصائص ميزته عن فنون الأدب العربي،فهو أدب كُتب لغاية رمزية سامية هدف الأديب الصوفي من وراءها هو التعبير عن الفيض الروحي وحالات الوُجد والهيام في الذات الإلهية،والصوفية يؤثرون الإشارة لأنها أساس التفاهم بينهم ،وهي التي تجعل لهم الخصوصية التي ليست للدهماء والعوام».

ومنه فقد أكسب المتصوفة عباراتهم اللغوية طابعًا خاصًا، ولغة جديدة في نظامها وتركيبها ودلالاتها،وقد رأينا لجوء هؤلاء إلى إيجاد بعد آخر للكلام ،واختراق الصوفية للغة التداول والتواصل لأنها لاتستجيب للمقامات والأحوال التي تعيشها،ولأن هذه اللغة تُصبح لغة الرمز والإشارة».

اعتمدت لغة المتصوفة على الرمز والإشارة ،وبذلك كان خطابهم غير مباشر ،وأنتجوا لغة جديدة تعدت عن لغة التخاطب اليومي ،وحتى هي مختلفة عن اللغة الأدبية المعروفة عند أدباء جيلهم .

4- خصائص السرد عند النفري:

اتسم أسلوب السرد النفري في مصنفاته النثرية الصوفية بسمات خاصة،وامتاز سرده في كتابه المواقف والمخاطبات بالخصائص التالية:

أ-الخصائص التصوفية: ومن السمات الصوفية الخاصة بالمضامين الدينية ،وعلاقتها بالتأمل والتفكير نذكر مايلي:

- سمة الرمزية :تعد سمة الرمزية أبرز سمة في سرد النفري « والنفري على وجه الخصوص كان أكثره الأدباء فيما نعلم إيغالًا في التعبير عن بواطن النفس تعبيرًا رمزيًا مشوبًا بغلاله من الغموض، والرمز عند النفري هو أشمل وأعمق،فالنفري يوظف الرموز المفردة لخلق بناء رمزي أعم ،وهذا هو بالضبط مدلول الرمزية. ».

يعد النفري أحد رواد التعبير الرمزي في الأدب العربي القديم، فخطابه في الأساس هو رمزي اعتمد على الإشارة، وتوفر للصوفية معجم لغوي خاص بهم،فالمفردات عندهم لها مدلولات دينية جديدة،ونأخذ على سبيل المثال نموذج المتصوف عبد

الجبار النفري«وهو أحد صوفية القرن الرابع ممن غلبت عليهم الرمزية في التعبير في كتابه" المواقف والمخاطبات"،وجاء في قوله:"قال لي"الحق" :الحرف يعجز عن أن يخبر عن نفسه ، فكيف يخبر عني"».

نجد النفري أشار إشكالية هامة، وهي عجز اللغة عن التعبير عن مكنونات الأديب،وتوصيل عالمه الفكري والروحي ونرى النفري مهتم باللفظ ومعناه وعلى خلاف توجه ابن عربي في التأليف «فابن عربي على الرغم من نهجه نهجًا رمزيًا مغلقًا في كثير من الأحيان،نراه يشغل القارئ بمعانيه لابألفاظه ولا عجب في ذلك، فلم يكن الرجل بلاغيًا محترفًا،ولكنه مع ذلك نهج منهج الرموز والإشارات التعبيرية في ثنايا كتبه الكثيرة ، وذلك في قوله "فأفهم إشاراتي برموزي وكن فطنًا"».

فعلى عكس النفري نجد ابن عربي مهتم بالمضامين والتعمق فيها على نحودعا المتلقي لإعمال فكره،والتدبر في معانيه «ولقد مزج ابن عربي بين التصوف والفلسفة فخرج بمذهب صوفي متكامل في طبيعة الوجود».

كما نرى بأن ابن عربي خطابه الصوفي تأسس على المزج بين مذهبه في التصوف مع الأفكار الفلسفية، وهو ماذهب إليه النفري على نحو بعيد.

- سمة الاقتباس من القرآن الكريم :

وظهرت سمة الاقتباس من القرآن الكريم في «ورود العديد من الآيات القرآنية بين عباراته، وإن كان يوظفها لخدمة الفكرة التي يتناولها بالحديث».

نرى بأن السرد الصوفي عند النفري طغى عليه المناخ الديني المتشبع بتعاليم الإسلام، ونجده قد شجع الأدباء على الاشتغال في مجال الكتابة الصوفية .

ب-الخصائص الأدبية:

حفلت كتابات النفري على الكثير من الفنون البديعية،وهكذا فإن نصوص النفري سواء في المواقف أو المخاطبات حفلت احتفالًا شديدًا بالمحسنات البديعية مع ميل خاص إلى الإكثار من السجع» .

تضمن كتاب النفري المواقف أو المخاطبات على العديد من الصور البلاغية والمحسنات البديعية،ومنها ماورد في كتابه المواقف نحو «وقال لي الواقف ينطق ويصمت على حكم واحد

وقال لي الوقفة نورية تعرف القيم وتطمس الخواطر

وقال لي الوقفة وراء الليل والنهار ووراء مافيهما من الأقدار ».

إن اعتماد النفري على أساليب البلاغة زاد من جمالية خطابه الصوفي ،ومامَيَّزه كذلك هو الجمع بين الأضداد، ومازالت عبارته الشهيرة" كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة"يتردد صداها في أدبنا العربي المعاصر،ومعناها أن اللغة عاجزة عن التعبير عن خواطر النفس البشرية .

ومنه في الأخير يمكننا القول بأن تجديد الصوفية في سردهم للخطاب الصوفي تمثل في استخدامهم لغة جديدة خاصة بهم في التعبير الصوفي،وصدق معانيهم وعمقها زاد من انتشار طريقتهم في التأليف الأدبي،وكان لهم شعرية صوفية خاصة في التأليف،فشعرية السرد الصوفي قامت على الرمزية، والتوغل في الأفكار الباطنية ذات الدلالات الدينية .